أوراق الهلباوى بين المذكرات والذكريات

عرض وتحليل

الدكتور

أحمد الشربينى

أستاذ التاريخ الحديث المساعد

بكلية الآداب – جامعة القاهرة

حرص إبراهيم الهلباوى على أن يترك للمهتمين بتاريخ مصر السياسى والاجتماعى تسجيلاً للأحداث التى شارك فيها ، أو تلك التى كان على مَقْرُبَةٍ منها ، من خلال أوراق خلّفها لنا لم تُنشر بعد ، ومُودعة ضمن مذكرات السياسيين والزعماء بدار الوثائق القومية ، وهذه الأوراق موجودة جنباً إلى جنب مع مذكرات السياسيين والزعماء ، تُصَنَّفُ وتُوصَفُ على أنها مذكرات ، برغم أن صاحبها ذهب إلى أنها سيرة ذاتية [1] .

وتبلغ هذه الأوراق ٤١٢ صفحة ، تقع فى كراستين ، تضم الأولى منهما ١٤٣ صفحة والثانية ٢٦٩ صفحة ، ويوجد بالدار ثلاث نسخ منها ، وجاءت الكُرَّاسة الأولى من النسخة الأولى بمثابة صورة لأصل منسوخ على الآلة الكاتبة ، أما الكراسة الثانية فهى عبارة عن مسودات كتبت بخط اليد ، ولهذا تُعد هذه النسخة بكراستيها ، مسودات الأوراق .

وإذا كانت النسخة الأولى من هذه الأوراق هى المسودة ، فإن الثانية هى النسخة المنقحة ، لأن كراستها الأولى تضمنت الأصل المنسوخ على الآلة الكاتبة ، أما كراستها الثانية فكان تبييضاً بخط اليد للكراسة الثانية من النسخة الأولى ، باستخدام القلم « الكوبيا » وفى نفس صفحات الأصل للنسخة الأولى . وتعد النسخة الثانية الأصل للنسخة الثالثة ، والتى تُعَدُّ أوضحها ، لأنها كُتبت بحروف تجميعية على هيئة كتاب ، بشكل يوحى بأن النية كانت قد انعقدت على نشرها من جهة ما .

---

(١) مذكرات إبراهيم الهلباوى ، ك ٢ ، ص ٤٠٨ .

وإذا كانت النسختان الأخيرتان تتسمان بالوضوح – وبخاصة الكراسة الثانية التى تعرضت لعمليات شبه جراحية ، من جانب صاحب الأوراق – فإن فحص هذه الأوراق يتطلب العكوف على النسخة الأولى لمعرفة ما إذا كانت هذه الأوراق قد كُتبت مع الأحداث مباشرة وفى وقت واحد أم على فترات متباعدة ، وهل امتدت إليها اليد بعد الكتابة بالتعديل أو الحذف أو الإضافة ؟ وهذا ما يحتاج بلا شك إلى فحص فنى دقيق .

والمُطّلع على الكراسة الثانية من النسخة الأولى ، ينتهى إلى أن جزءا لا بأس به من أوراق الهلباوى قد دون فى وقت متقارب ، وربما فى وقت واحد ، لتشابه الخط والمداد ، وكذلك الورق الذى جاء أملسَ مائلاً إلى الصفرة . كما دُوِّنَ جزء منها – وجاء فى نهاية المذكرات – فى وقت آخر ، وربما متأخر ، لأنه كُتب بخط مختلف ، وعلى ورق « فلوسكاب » من نوع آخر ، وباستخدام القلم الرصاص ، وهذا ما يُعد شاهداً على أن الهلباوى لم ينسخ أوراقه بنفسه ، كما أنه استعان بأكثر من شخص فى نسخها ، وقام هو بإملائها .

والمتصفح للكراسة الثانية يلمس مدى تدخل القلم – الرصاص فى معظم الأحيان ، والكوبيا فى أقلها – بعد كتابة الأوراق ، وذلك لتقويم الأسلوب ، أو لتصحيح الأخطاء وتغيير فقرات أو صفحات كاملة ، ويؤكد هذا وجود صفحات كاملة كُتبت بقلم مختلف – الرصاص فى الغالب – وعلى ورق مختلف ، تخللت ما كُتب بالخط الأصلى للأوراق . كذلك اتخذت عملية الترقيع – إذا جاز لنا التعبير – للأوراق شكل إضافة قصاصات جديدة ، كُتبت بخط وعلى ورق مختلفين عن الأصل ، كذلك بإضافة قصاصات اقتُطعت من الأصل [1] ، وربما بعد أن استبعد صاحب الأوراق كُلّ ما قد يؤدى نشره إلى إثارة جو من الشحناء مع من كانوا على خلاف سياسى معه ، ولذا أدت عملية الترقيع إلى غلبة أسلوب التأليف على المذكرات ، وبخاصة أن السياق العام للحديث والأحداث جاء بعدها سليماً ومنطقيًا . وكذلك أدى التدخل فى السياق – بالحذف أو الإضافة – إلى خلو الأوراق من أى قذف أو قدح لأىٍّ من السياسيين المصريين فى تلك الفترة .

---

(١) نفس المصدر ، ك ٢ ، ص ١٦٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢١٧ – ٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ .

فعلى الرغم من اختلاف الملباوى مع سعد زغلول حول كثير من القضايا التى وردت متناثرة بالأوراق ، فإنه لم يحاول تسخيرها لتشويه الصورة الحسنة لسعد زغلول عند المصريين ، أو حتى إثارة الشكوك حولها . كذلك لم يلوح بأصبع الاتهام لأىّ من أعضاء لجنة الوفد المركزية ، برغم تأكيده على وجود تلاعب فى أموال اللجنة .

ولهذا لم تتوفر لأوراق الملباوى المعايير التى تجعلها مذكرات ، وفى تقديرنا أنها أقرب إلى الذكريات ، وهذا ما تؤكده بعض الشواهد التى استخلصت من ثنايا الأوراق ، والتى تثبت أن صاحبها لم يسجل أحداثها فى حينها ، أو على التو من وقوعها ، بل سجل بعضها بعد فترة امتدت إلى نصف القرن ، ففى معرض حديثه عن الثورة العرابية ذهب إلى أنه « منذ ذلك العهد - يقصد الثورة العرابية - آليت على نفسى ألّا أشكو سلطة أهلية مهما جارت وتعسفت إلى سلطه أجنبية ، ولقد نالنى فى الخمسين عاماً الماضية من الحوادث المؤلمة ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى بسبب تمسكى بهذا المبدأ » [1] .

كذلك سجل الملباوى بعض أحداثه بعد فترة من وقوعها تراوحت بين عقد وعقدين من الزمان ، فعندما انتهى من عرضه لمرافعاته عن إبراهيم الوردانى ذكر أنه برغم « مضى نحو العشرين عاماً لازلتُ أذكر ما اعترانى من الغبطة والسرور ... » [2] . وبينما كانت يتحدث عن أحداث العنف بالإسكندرية فى مايو سنة ١٩٢١ أشار إلى أنه « على رغم من مضى نحو التسع سنوات على هذه الوقائع .... [3] » .

وغير ذلك ، فكثيراً ما استخدم الملباوى فى أوراقه كلمات وتعبيرات تؤكد اعتماده على الذاكرة فى استعادة الأحداث وتدوينها ، منها ... وأذكر أن هذا كان فى « كذا » ... ومنذ « كذا » ... وحتى الآن أو اليوم [4] .

وإذا كان الملباوى قد تأخر فى كتابة أوراقه فالسؤال الذى يطرح نفسه بإلحاح

---

(١) نفس المصدر ، ك ١ ص ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ، ك ١ ص ٩١ .

(٣) نفس المصدر ، ك ٢ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٤) نفس المصدر ، ك ١ ، ص ١٠ ، ٤٦ ، ٩٩ - ١٠١ ، ك ٢ ص ١٨٠ .

هو متى بدأ فى تدوينها ؟ يذكر صاحب الأوراق أنه قام بمحاولة أولية لرصد أوضاع المجتمع المصرى السياسية منذ سنة ١٨٧٥ ، وذلك إبان الثورة العرابية ، غير أن ما دَوَّنه دُمِّرَ على يد أحمد خيرى باشا ، رئيس الديوان الخديوِ ، بإيعاز من السراى [١] .

ثم عاود الهلباوى التجربة فى نهاية عشرينات القرن الحالى ، حيث بدأ فى كتابة أوراقه المودعة بدار الوثائق القومية ، وهذا ما استخلص من القراءة المتأنية لهذه الأوراق ، وبخاصة أحداث الثورة العرابية ، ومرافعاته عن الوردانى ، والمعلومات التى أوردها عن أحداث فى مايو سنة ١٩٢١ [٢] .

وقد أكد عبد الحليم الجندى – أحد تلامذة الهلباوى – على ذلك بما ذهب إليه من أن الهلباوى قد شرع فى إملاء مذكراته على أحد الكتبة بمكتبه فى أكتوبر ١٩٢٩ [٣] . وقد استغرقت هذه العملية ما يزيد على عشر سنوات ، وهى المدة التى حددها الهلباوى نفسه عندما ذكر أنه كان يؤثر تذييلها بحديث عن حياته الخاصة لكن « الصدفة التى أجلت كتابتها إلى ما بعد وفاة المرحوم حسن صبرى باشا يوم الأربعاء ٥ نوفمبر ١٩٤٠ جعلت من الحق على أن أجعل خاتمتها ... هذا الحادث » [٤] .

وقد يتساءل البعض عن السر فى عكوف الهلباوى بعد أن تجاوز من السبعين – لما يزيد على عشر سنوات – على كتابة أوراقه ؟ ونعتقد أن هذا كان جرياً على سنن تقليد الزعماء ، وبخاصة سعد زغلول ، الذى لمح فى أكثر من موضع من مذكراته إلى أنه لم يتفوق على الكثيرين فى شىء ، وأن المصادفة لا أكثر كانت وراء لمعان نجمه السياسى . وإلى جانب هذا حرص الهلباوى على أن يسخر أوراقه لتبريد ما عَلِقَ به من أبشع التهم ، وألذَع الألقاب – أشهرها جلاد دنشواى – منذ أن قبل تمثيل الادعاء الحكومى فى دنشواى ، وبخاصة بعد أن تملكه اعتقاد بأنه قدم للحركة الوطنية بعد دنشواى ما يجعل الأمة تغفر له موقفه فيها . ولهذا حرص على نشر أوراقه بمجرد انتهائه

---

(١) نفس المصدر ، ك ١ ، ص ١٨ .

(٢) ارجع إلى ما ذكرناه آنفاً عن هذه الأحداث .

(٣) عبد الحليم الجندى : جرائم واغتيالات القرن العشرين ، جـ ١ ، الطبعة الأولى ، دار سعد مصر ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٤٣ ، ٧٣ .

(٤) مذكرات الهلباوى : ك ١ ، ص ٤٥ : ك ٢ ، ص ٤٠٩ .

منها ، وهذا ما تردد فى أكثر من موضع من مذكراته ، فقد ذهب فى حديثه عن دنشواى إلى أنه « يُخَيَّلُ إلىَّ » أن « الذين » سيقع بين أيديهم هذا الكتاب سَيُقَلِّبُون صفحاته سراعاً باحثين عن تلك القضية التى شاء القدر أن يقرن اسمى بها »[1] . كذلك استخدم فى سياق الحديث بعض الألفاظ والعبارات التى تدل على ذات العزم كقوله – على سبيل المثال : « ... مما سيراه القارىء فيما بعد »[2] .

وقد قطع عبد الحليم الجندى الشك باليقين حول النشر من عدمه ، بذهابه إلى أن الهلباوى فى أواخر سنة ١٩٤٠ كان قد استحث مدير دار الكتب « الدكتور منصور فهمى باشا عندئذ – على نشر مذكراته ، وبعد أن جمع بعضها فى المطبعة توقف الطبع[1] ، ربما بعد أن توفى صاحبها فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٠[2] .

وقد دفع تراجع دار الكتب عن نشر أوراق الهلباوى بعد وفاته بعض أصدقائه وتلامذته إلى التفكير فى نشرها ، وربما كان عبد الحليم الجندى أحدهم ، لأنه كان قد أعد تصديراً لتلك الأوراق ، جاء فى تسع عشرة صفحة ، وأكد فيه على إعدادها للنشر بعد الحصول عليها من الورثة . غير أن هذه الجهود ذهبت أدراج الرياح ، وربما دفع هذا صاحب التصدير إلى إعداد مؤلف يؤرخ لحياة إبراهيم الهلباوى داخل المحاكم ، مستغلاً فى ذلك ، التصدير الذى كان قد كتبه ليكون بمثابة توطئة أو مقدمة للمذكرات ، هذا إلى جانب بعض مرافعات الهلباوى – التى عدها مثالاً يجب أن يحتذى[3] .

ولما كان الهلباوى قد عقد العزم على نشر أوراقه بمجرد الانتهاء منها ، فقد استبعد بعض الأحداث والملابسات بشكل أصاب أوراقه بقدر من القصور والخلل ، وقد أدرك هذا مَنْ عرفوه عن كثب ، ولمسوا البون الشاسع بين ما كان يتوفر لذاكرته ، وما جاءت بأوراقه ، التى جاءت مختزلة ، فى حين أن من كان يستمع إلى حديثه – على

---

(١) نفس المصدر : ك ١ ، ص ٧٦ .

(٢) نفس المصدر : ك ٢ ، ص ١٧٠ .

(٣) عبد الحليم الجندى : جرائم واغتيالات ، ص ٨٧ .

(٤) مضابط مجلس الشيوخ المصرى ، الانعقاد السادس عشر ، الجلسة الرابعة ، ٢٣ ديسمبر ١٩٤٠ .

(٥) مذكرات الهلباوى : ك ١ ، تصدير عبد الحليم الجندى ، ص ١ – ١٩ ، عبد الحليم الجندى : جرائم واغتيالات جـ ١ .

حد قول أحمد أمين – يدرك أنه « يحمل فى صدره تاريخ جيل لم يدون فى كتاب »[1] . وقد أثنى على ذلك عبد الحليم الجندى بقوله : إن من « عرفوا صاحبها عن كتب سيدركون أكثر مما يدرك الذين عاصروا وقائعها وعاشوا معها »[2] ، لأنه كان فى إمكانه أن « يقص على مُحَدِّثِه فى سنة ١٩٣٠ أنه فى يوم الأحد كذا يوليو ١٨٩٣ صنع كيت وكيت ، وأنه فى الغداة صنع كيت وكيت ، وهكذا فى حوادث كثار »[3] .

وبرغم عقلية الملباوى الدقيقة والمنظمة ، والتى أشاد بها من عرفوه ، فإن أوراقه افتقدت التحديد الدقيق لتوقيتات معظم الأحداث التى أوردها ، برغم حرصه الشديد على تجنب الوقوع فى هذا المأزق بالابتعاد عن ذكر توقيت الحدث قدر الإمكان ، حتى لا تخونه الذاكرة ، ومع ذلك خانته كثيراً ، فعند تحديده للمدة التى أقامتها لجنة ملز بمصر ، قال « أتذكر أن ... أقامتها ... ستة أسابيع »[2] . فى حين أنها بلغت ثلاثة أشهر ، حيث وصلت اللجنة إلى مصر فى ٧ ديسمبر ، وغادرتها فى ٦ مارس ١٩٢٠[3] .

كذلك جانبه الصواب فى تحديد اليوم الذى قُبض فيه على سعد زغلول وزملائه ، والذى حدده بـ ٥ مارس ١٩١٩[4] ، فى حين تم القبض عليهم فى ٨ مارس ١٩١٩[5] .

وعلى الرغم من هذا القصور الذى اعترى أوراق الملباوى ، فإنها تعد مصدراً لا بأس به لفترة هامة من تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، تمتد من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وحتى نهاية العقد الرابع من القرن الحالى ، تمكن تلك الأهمية فى

---

(١) نقلا عن محمد كامل الفقى : الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة ، جـ ٢ ط ١ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٨٩ – ٩٠ .

(٢) مذكرات الملباوى : ك ١ ، تصدير عبد الحليم الجندى ، ص ١ .

(٣) عبد الحليم الجندى ، جرائم واغتيالات ، ص ١٢٩ .

(٤) مذكرات الملباوى : ك ٢ ، ص ١٦٦ .

(٥) عبد الرحمٰن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، جـ ٢ ، ط ١ ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ ص ١١٢ ، ٣٠٦ .

(٦) مذكرات الملباوى : ك ١ ، ص ١٣٤ .

(٧) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ط ٢ ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٦٦ .

أن صاحبها قد شارك فى ثورتين ، إحداهما وهو فى شرخ الشباب « الثورة العرابية » ، وثانيهما وهو فى طور الشيخوخة « ثورة ١٩١٩ » . كما ساهم فى الحياة الحزبية – فى جانبها المعتدل « حزب الأمة ، والأحرار الدستوريين » غير الشعبى ، باستثناء فترة تأليف الوفد المصرى فى بداية تكوينه – هذا إلى جانب اهتمامه بالحياة النيابية ، التى اتصل بمؤسساتها إمّا موظفاً وإمّا عضواً .

إضافة إلى ذلك تعمد مرافعاته فى القضايا السياسية ، وبصفة خاصة قضايا العنف السياسى ، حادث بطرس غالى ، والسردار ، والقنابل – مادة علمية قيمة لمن يرغب فى كشف النقاب عن ظاهره العنف فى الحركة الوطنية ، حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وتُعد مرافعاته فى القضايا الشرعية أيضاً مادة علمية قيمة لدارس تاريخ مصر الاجتماعى ناهيك عن المادة العلمية المتوفرة بالأوراق عن المحاماة والقضاء ، وكذلك دور الأزهر فى الحياة الفكرية المصرية .

* * *